

التقاطع المعرفي بين النص والخطاب عند الدارسين القدامى والمحدثين (المفهوم والحدود)
 the cognitive intersection between the texte and the discourse of the old
 and new researchers (concept and limits)

¹ الدكتورة: مقدم فاطمة(*) ² الدكتور: عمامرة كمال

جامعة غليزان/ الجزائر، البريد الإلكتروني: mokeddemfatma04@gmail.Com

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف الجزائر kamal@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2021/10/26 تاريخ القبول: 2021/12/27 تاريخ النشر: 2022/06/05

ملخص: تعد قضية المصطلح اليوم، من أهم القضايا التي تنصدر قائمة الأبحاث والدراسات العلمية والأدبية، لما لها من تأثير مباشر وأساسي، في تحريك عجلة التصورات الإنسانية لشتى المواضيع ولا يخفى على الدارس مدى صعوبة ضبط الحدود بين مثل هذه التداخلات الاصطلاحية -الخطاب، النص- خاصة مع انتماء المصطلحات إلى حقل معرفي واحد.

فسيمة الخلط والغموض والارتباك التي تسم جميع الممارسات التي تتصل بأمر المصطلح، تفاعلت فأصبحت إشكالية أساسية من إشكالية الثقافة العربية الحديثة، والأمر في الأصل يرتبط بسببين أفصيا إلى كثير من المظاهر المتصلة بها؛ كإضفاء دلالات جديدة على المصطلح، الذي أنتجته الثقافة العربية في الماضي، أو نقل مصطلح ذي دلالة محددة ضمن ثقافة ما إلى ثقافة أخرى.

كلمات مفتاحية: المصطلح، التقاطع، المعرفي، النص، الخطاب، المفهوم، الحدود.

Abstract:

* المؤلف المرسل: الدكتورة مقدم فاطمة

The term issue today Is one of the Most important issues at. the top of the List of scientific and literary studies and studies, because it has a direct and fundamental impact in moving the Wheel of human perceptions on various topics. With the terminology belonging to a single epistemic field, the confused, ambiguous, and confusion characteristic of all practices that relate to the term matter has interacted and has become a fundamental problem of modern Arab culture, and the matter is originally related to two reasons leading to many aspects related to it, such as adding new signs to The term, which was produced by Arab culture in the past, or the transfer of the term of a new indication of the term, which was produced by Arab culture in the past, or the transfer of the term of a specific significance within the culture to another culture.

Keywords: cognitive. Intersection. Text. Discourse. Concept. Limits. Term.

1. مقدمة: لقد أصبح مفهوم "النص" عند بعض الدارسين المحدثين عبارة عن مجموع الأفكار المراد التعبير عنها بواسطة الخطابات التي تم تدوينها عن طريق الكتابة دون التلفظ بها إذ لا يعتبر الخطابات المنطوقة المنحزة والمقيدة بفعل الكتابة نصوصا حقا، ذلك أن الكتابة تأخذ مكان التعبير، "فالتثبيت بالكتابة يحل محل الكلام أي حيثما كان بإمكان الكلام أن يولد، يمكن لنا إذا أن نتساءل إن لم يكن النص نصا حقا عندما لا ينحصر في تسجيل كلام سابق، بل عندما يدون مباشرة بالحروف ما يريد الخطاب قوله". وهذا ما يدفعنا إلى طرح إشكال آخر، ما علاقة النص بالخطاب؟ هل هما مصطلحين لمفهوم واحد؟، وفيم تكمن حدود التقاطع المعرفي بينهما عند الدارسين القدامى والمحدثين؟.

وتساوفاً مع ما سبق ذكره، فإنّ تحديد مفهوم "النص" بين التراث والحداثة، وجب معه كذلك ضرورة تحديد مفهوم الخطاب بين التراث والحداثة لترسم المعالم بشكل واضح بين هاذين المصطلحين، فهناك من الدارسين من يرى "أن العلاقة بين الخطاب والنص متعددة، وهناك من يرى أنهما شيء واحد، أو يرى أن النص أعم من الخطاب... كما أن هناك من يرى أن الخطاب أشمل

من النص". ولفك هذا التلازم بين المصطلحين، سوف نحاول من خلال هذه الورقة البحثية -بعون الله تعالى- أن نتطرق إلى التجليات الدلالية لمفهوم الخطاب عند الدارسين القدامى والمحدثين، وتبعاً لذلك لا ضير من أن نعود إلى الينابيع الأولى التي تناولت مفهوم النص والمتمثلة أساساً في التراث اللساني العربي مجسدة عند بعض ممن يعدون الأوائل الذين توقفوا عند مفهوم النص ناهيك عما أشارت إليه المعاجم من تلك التحديدات اللغوية التي يسبح في ظلها مفهوم النص من الوجهة المعجمية، محاولين في نهاية المطاف التوقف عند التقاطع المعرفي بين هذه التحديدات التراثية وما أشارت إليه الثقافة اللسانية المعاصرة.

2. مفهوم النص في التراث العربي: إنَّ المتفحص لمفهوم النص في الدراسات العربية

يجده مرتبطاً قديماً بالعلوم النقلية والعقلية على حد سواء، وذلك بدراسته من طرف المفسرين والفقهاء والأصوليين والمتكلمين فالبلاغيين، مما أدى إلى تطوره الدلالي في هذه الدراسات المختلفة التي كانت بإمكانها أن تؤطره وتجعله أكثر تخصصاً في حقل معرفي متكامل، لولا منافسة بعض المفاهيم الشهيرة كمفهوم اللفظ ومفهوم البيان ومفهوم النظم، التي تدرس جوانب تنطوي اليوم تحت لواء النص⁽¹⁾، وتبعاً لذلك يعود الفضل في تبلور مفهوم "النص" إلى كتب التفسير وعلم الأصول التي وضعها العلماء العرب من أجل فهم النص القرآني فهما صحيحاً، وتفسيره تفسيراً دقيقاً صحيحاً، وذلك بتعبيرهم عن (القرآن والسنة النبوية) بـ"النص"، و«عملية التعبير عن القرآن والسنة معاً بالنص، وإن تبدو ثانوية في مظهرها، فإن أهميتها على الصعيد الاستمولوجي عظيمة جداً، ذلك لأنها حولت (الأصول الأربعة) من أصول الفقه وحده إلى أصول يمكن أخذها في صورتها المجردة، وتأسيس أنواع من المعارف عليها»⁽²⁾، وبناء على ما تقدم يتضح لنا أنَّ خصوصية هذه الدراسة لمفهوم "النص" في تراثنا العربي الإسلامي ارتبطت بالأصل المعطى "القرآن الكريم"، الذي يعد الأصل الأول لهذه الدراسة اللغوية لتحليله والكشف عن مواطن بلاغته ودلائل إعجازه.

2-1 لغة: أورد ابن منظور في مادة (ن، ص، ص) عدة معانٍ للنص " نذكر منها قوله:

«النص: رفعك للشيء، نصَّ الحديث، نصَّه نصًّا: رفعه، وكل ما أظهر، فقد نص، ونصت الظبية جيدها، رفعته، ووضع على المنصة؛ أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور، والمنصة ما تظهر عليه العروس لثرى، ونص المتاع نصا، جعل بعضه على بعض، ونص الرجل نصا إذا سأله عن شيء حتى يستقصي ما عنده، ونص كل شيء منتهاه. قال "الأزهري": النص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها، ونص الشيء: حركه»⁽³⁾، كما وجدنا له مفهوما آخر في كتاب محيط المحيط إذ أن: «النص هو الامتلاء والإنشاء، يقولون: نصَّ الكتاب لفلان وعلى فلان، وجاء في الكليات النص أصله أن يتعدى بنفسه؛ لأن معناه الرفع البالغ؛ ثم نقل في الاصطلاح إلى الكتاب والسنة، وإلى ما لا يحتمل إلا معنى واحدا، أو ما لا يحتمل التأويل»⁽⁴⁾، وأمّا في المعجم الوسيط فمعناه: «صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف، والنص ما لا يحتمل إلا معنى واحدا أو لا يحتمل التأويل، ومنه قولهم: لا اجتهد مع النص، وعن الأصوليين: النص هو الكتاب والسنة، والنص من الشيء منتهاه ومبلغ أقصاه، يقال نصَّ الحديث رفعه وأسنده إلى المحدث عنه»⁽⁵⁾، وهذه المعاني المتعددة للنص تعتبر معاني مولدة لهذا المفهوم.

2-2 مفهوم النص اصطلاحًا: تعدد التعاريف الاصطلاحية المتعلقة بالنص، حيث

نلاحظ الشريف الجرجاني في كتابه "التعريفات" يذهب إلى القول: «بأنَّ ورود النص في السياقات التركيبية لا يخرج عن مقامين اثنين أحدهما خاص، والثاني عام فيكون الخاص على حدِّ اعتقاده ما زاد وضوحا على الظاهر بمعنى في المتكلم، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى كما يقال: أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي وينغم بغمي، كان نصا في بيان محبته»⁽⁶⁾، وعلى ما يبدو لنا من كلامه، فالنص هو كل كلام واضح لا لبس فيه ولا غموض ومعناه في ظاهر كلامه لا يحتمل التأويل وسوء الفهم ذلك أن المتلقي لا يجد صعوبة في الوصول إلى هدف المتكلم المراد تبليغه؛ وهو

نفس المعنى الذي وجدناه في معجم محيط المحيط؛ وذلك في قوله: "النص" هو «ما لا يحتمل إلا معنى واحد، قيل ما لا يحتمل التأويل»⁽⁷⁾، وهذا التعريف أكثر دقة، فالنص ما لا يحتمل إلا معنى واحداً في نفس المتكلم ولن يفهم منه المتلقي أو القارئ إلا معنى واحد، فمعناه ظاهر على لفظه، ومنه قيل: لا اجتهد مع النص.

وتساوفاً مع ما سبق ذكره، يحدد الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" فعالية النص من خلال قدرته على تجاوز الزمان والمكان، والاتجاه صوب المستقبل، فإذا كان اللسان مقصوراً على إبلاغ الحاضر في الزمان والقريب في المكان، فإنّ الخط مطلق بحيث يستطيع إعلام الغائب في المكان والمسبوق في الزمان، إذ نجده يدلّل على هذه الخاصية للخط والتي تميزه عن اللفظ، في قوله: «اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الخائن مثله للقائم الراهن. والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوز إلى غيره»⁽⁸⁾، وتبعاً لهذا الطرح نجد الجاحظ يذهب إلى تحديد أهمية وفعالية النص المكتوب بوصفه يتعدى حدود الزمان والمكان، فهو موجه للمتلقي الحاضر الغائب معاً، على عكس النص المنطوق؛ أي (الخطاب) الذي لا يتعدى سامعه، وبناء عليه، يضمن الخط لمعنى النص المكتوب فرصة الظهور والاستمرار.

وتأسيساً على ما سبق، نشير إلى أنّ مفهوم الخط يشمل عدة وسائل -لغوية وغير لغوية- تسهم في نقل المعنى وبلورته في ذهن المتلقي؛ كالرسوم والنقوش والصور، وغيرها، وعلى ما يبدو لنا، فإنّ الجاحظ «لم يعتبر الفرق الشكلي بين هذه العلامات المختلفة مسألة جوهرية، تجعلنا نعتبر الشكل المعين مرتبطاً بجوهر خاص، يتميز به عن غيره من أشكال الإشارة بالخط، أي أنه إذا اختلفت وسائل العلامة، ثم تباينت تبعاً لهذا الاختلاف أشكالها، فإن جوهرها يظل واحداً، إنه إشارة تعتمد على الشكل المصور الذي يدرك بواسطة العين ضمن سطح المكان»⁽⁹⁾، وعند هذا المنحنى من الطرح، يصبح التباين باعتبار تحقيق قصد المرسل في اختياره للعلامات الدالة على المعنى

الذي يريد إيصاله إلى لدن المتلقي؛ من خطوط ورسومات ونقوش وأرقام لا أساس له، بوصف هذه الأخيرة لها إمكانية نقل المعنى وإيصاله؛ بل وترسيخه، وهو الأمر الذي يمنح "للنص" قابلية القراءة المستمرة والمتجددة في الزمان والمكان.

ونستخلص من هذا التحديد الذي يجعل النص ظاهرة تتجاوز ما هو لغوي «أنّ تحليل النص لا ينحصر في مقولات اللغة على الرغم من أنه متشكل منها، إلا أنه يراعي جوانب لا تتمثل في الواقع اللغوي الفعلي، بل توجد في الواقع الخارجي الذي يعبر عن مقولات غير لغوية أي مقولات خارج النص»⁽¹⁰⁾.

2- 3 النص في الدراسات الحديثة: الظاهر أن قضية ضبط مفهوم محدد للنص

وشكله اليوم، هي محط خلاف وتباين في الآراء بين الدارسين، فعلى الرغم من تلك الجهود التي بذلت من أجل إيضاحه وضبطه، إلا أنّنا نلاحظ أنّ تحديده يختلف من باحث إلى آخر، نظر لاختلاف المنطلقات الفكرية، والتراكمات المعرفية، والمرجعيات الإيديولوجية والنفسية والاجتماعية وغيرها، وبناء عليه، «فإنّه لمن النادر أن يكون مفهوم النص، المستعمل بشكل واسع في إطار اللسانيات والدراسات الأدبية، قد حدد بشكل واضح؛ ذلك لأنّ بعضها يحدد تطبيقه على الخطاب المكتوب؛ بل على العمل الأدبي، وبعضها الآخر يرى فيه مرادفا للخطاب، وأخيرا، فإنّ بعضها يعطيه توسعا سيميائيا منتقلا فيتكلم عن نص فيلمي، وعن نص موسيقي إلى آخره»⁽¹¹⁾، وعند هذا المأخذ بالذات، تحيلنا هذه التحديدات التي وضعها كل من ديكر و جان ماري سشايغر لمفهوم النص على مدى صعوبة تحديد الأطر والسمات الفارقة بين مفهوم النص، ومفهوم الخطاب أو اعتبارهما مصطلحين لمفهوم واحد.

ولقد تناول مفهوم "النص" العديد من الباحثين، إذ نجد بارت (R.J. Barthes) يخصص دراستين هامتين له حول "النص ونظريته"، إذ وسم دراسته الأولى حول مفهوم "النص" في الموسوعة العامة بعنوان: "نظرية النص"، مشيراً إلى أنّ السطح الظاهري لنسيج الكلمات المستعملة والموظفة

فيه بشكل يفرض معنى ثابتا وواحدا إلى حد بعيد. قابل للإدراك بصريا من خلال عملية الكتابة، باعتماده موضوعا مؤسساتي متصلا بتاريخيا بالقانون والدين والأدب...، وانطلاقا من تحديد جوليا كريستيفا للنص، يسجل أهمية "التحليل الدلالي" في الكشف عن خصوصية النص، فمن خلالها يبين هوية النص وخصائصه بمفاهيم مركزية وهي: الممارسة الدالة والإنتاجية والتدليل والنص الظاهر والمكون والتناص...، في حين جاءت دراسته الثانية في شكل مقال له بعنوان: "من العمل إلى النص"، وفيه أشار إلى ضرورة التمييز بين النص والعمل، فالعمل الأدبي منه، وهو ما نجده على رفوف المكتبات، أو هو ما يمكن أن نمسكه باليد أما النص فتمسكه اللغة⁽¹²⁾، وهنا نلاحظ أنّ بارث في تحديده لمفهوم "النص" أشار بطريقة أو بأخرى إلى دور القارئ في تحديد مقاصد التي يتوخاها مرسل النص، وهو في السياق نفسه «يقول بارث فيما معناه النص نشاط وإنتاج...، النص قوة متحوّلة، تتجاوز جميع الأجناس والدرجات المتعارف عليها، لتصبح واقعا نقيضا يقاوم الحدود وقواعد المعقول والمفهوم، إن النص تكتمل فيه خريطة التعدد الدلالي. إن النص مفتوح، ينتجه القارئ في عملية مشاركة لا مجرد استهلاك، هذه المشاركة لا تتضمن قطيعة بين البنية والقراءة، إنما تعني اندماجها في عملية دلالية واحدة، فممارسة القراءة إسهام في التأليف»⁽¹³⁾، والجدير بالذكر أنّ مفهوم النص يزداد توسعا خاصة عند عمد مجموعة من الباحثين إلى ربط مفهومه بالجانب الاتصالي، إذ يفهم الاتصال اللغوي (ومن ثم النصوص) على أنه حقيقة اجتماعية جوهرية، تضاف إليها مؤشرات غير لغوية التي ترد في التفاعل الاتصالي، وتساوفاً مع ذلك يحدد كالمير Kilmeyer وآخرون النص على أنه «مجموع الإشارات النصية التي ترد في تفاعل اتصالي» ويقصد هنا بالإشارات كل ما له علاقة بعملية الاتصال من صفارة مفتش القطار والصور الرمزية وألوان إشارة المرور الضوئية، وكل الإشارات المصاحبة للمنطوق أو ما يسمى لغة الجسد»⁽¹⁴⁾، كما يعتمد بيتر هارتمان في تحديد آخر له لمفهوم النص على الجانب الاتصالي إذ يقول: «يمكن أن يطلق "نص" على كل ما يرد في لغة، ذلك أن اللغة تكون في شكل اتصالي أو اجتماعي كما هي الحال

دائماً، أي أنه قائم على شريك ذلك أننا حين نتكلم إلا من خلال نصوص باعتبار الاتصال ذا وسيلة لغوية وذات قدرة نصية»⁽¹⁵⁾، والتأكيد على السمة التواصلية للنص أمر طبيعي، ذلك أن التواصل من خصائص اللغات ولا تنفي بهذا ما سواها من الوسائل، ففي ضمن هذا الإطار يؤكد ديفيد كريستال David Krystelle في تعريفه للنص على «الامتداد، وكونه منطوقاً أو مكتوباً، ثم يؤكد الوظيفة الاتصالية، ثم يذكر نماذج للنص مثل التقارير الإخبارية والقصائد وإشارات الطريق وغيره»⁽¹⁶⁾، وهكذا تحيلنا هذه المفاهيم التي دارت في مجملها حول ماهية "النص" إلى جملة من التساؤلات البحثية تفرض نفسها على الباحث نظراً لتداخل البنيات المؤسسة للنص؛ على الصعيد اللغوي والاجتماعي، والثقافي، والنفسي...، وتبعاً لذلك تصبح الخاصية المميزة لبنية النص «تستدعي تكامل معارف وتلاقي إجراءات ومهارات تطبيقية لمقاربة النص المنجز في الثقافة الإنسانية، وهو الأمر الذي جعل لسانيات النص تتبوأ مكانة علمية ومنهجية تؤهلها مرجعياً وإجراءياً لإيجاد إجابات علمية كافية لكثير من التساؤلات التي تطرحها إشكالية النص»⁽¹⁷⁾، وهذا لا يتأتى إلا بمراعاة الجوانب الاتصالية والتداولية والأسلوبية والدلالية والنحوية الكامنة في النصوص.

وختاماً نتوصل إلى أنّ التعدد في ضبط مفاهيم المصطلحات والتنظير لها في الدراسات الغربية، قد انتقل بدوره إلى الدراسات العربية، نظراً «لغياب تصور نظري محدد المعالم، وغياب منهجية مضبوطة الحدود والأبعاد والغايات، مما يجعل الباحث العربي يلجأ إلى تشقيق الكلام، وإلى الأساليب البلاغية ليخفي الخسارات العلمية المؤكدة»⁽¹⁸⁾، مما نجم عنه عدم استيعاب لكثير من المفاهيم، لأنّ الباحث العربي انطلق من النظريات الغربية بنماذجها ومفاهيمها، بلغة يسودها الغموض والإبهام لإثراء مفهوم "النص" دون الاكتراث للقارئ العربي متجاهلين ما يوجد في كتب التراث والإحاطة بمفاهيم النص قبل إثراءه بالأفكار الحديثة⁽¹⁹⁾، وذلك لما يحويه التراث العربي من لبنة أساسية لدراسة النص من حيث المفهوم وذلك بحكم أن مفهوم النص «لم يحظ بدراسة تحاول اكتشاف هذا المفهوم في تراثنا إن كان له وجود، أو نحاول صياغته وبلورته إن لم يكن له وجود، إن

البحث عن مفهوم للنص ليس مجرد رحلة فكرية في التراث ولكنه فوق ذلك بحث عن "البعد" المفقود في التراث»⁽²⁰⁾، وبعد وقوفنا على جملة من التعريفات اللغوية والاصطلاحية المتعلقة بمفهوم "النص"، لا بد لنا كذلك من التعرض لمفهوم الخطاب هو الآخر، من أجل تحديد نقاط الاتفاق والتباين بينهما، وعليه، فلنبداً بـ:

3- مفهوم الخطاب^(*): الظاهر أنّ لفظة "خطاب" لا تقتصر على جانب بحد ذاته،

بل هي لفظة عامة؛ بحيث تشمل مجالات كثيرة ومتنوعة؛ إذ يتنوع الخطاب بتنوع الاستراتيجيات التي يتخذها المتكلمون والكتاب تماشياً مع ما تفرضه عليهم الحياة في المجتمع، من مواقف اجتماعية، وثقافية محدّدة، وهو ما يفسّر وجود أنواع كثيرة من الخطابات كالخطاب الديني، والخطاب العلمي، والخطاب السياسي، والخطاب الفلسفي، والخطاب المسرحي...⁽²¹⁾، وتساوقاً مع ذلك نجد تعريفه تتعدد باختلاف مشارب الدارسين واختلاف توجهاتهم قديماً وحديثاً، ولنبدأ بـ:

3-1 مفهوم الخطاب في التراث العربي: لغة: على الرغم من غنى اللغة العربية

بالمفردات التي تفوق في عددها مفردات بعض اللغات الأخرى، إلّا أنّها تعاني من مشكلة تحديد معاني عدد من المفاهيم والمصطلحات العلمية، وتحديد الوافد منها في إطار العلوم الإنسانية، وخاصة ما تعلق منها في مجال الترجمة، وعليه، تأتي أهمية تحديد مفهوم الخطاب، لذلك ينبغي أولاً أن نبحث عن جذره اللغوي في المعاجم، فلقد جاء في لسان العرب: «خَطَبَ فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ فَخَطَبَهُ وَأَخْطَبَهُ؛ أَيَّ أَجَابَهُ، وَالْخِطَابُ وَالْمُخَاطَبَةُ مُرَاجَعَةُ الْكَلَامِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ بِالْكَلامِ مُخَاطَبَةً وَخِطَابًا، وَهُمَا يَتَخَاطَبَانِ، وَالْمُخَاطَبَةُ صِيعَةٌ مَبَالِغَةٌ تُفِيدُ الْإِشْتِرَاكَ وَالْمُشَارَكَةَ فِي فِعْلٍ ذِي شَأْنٍ»⁽²²⁾، وقال الزمخشري في أساس البلاغة: «خَاطَبَهُ أَحْسَنَ الْخِطَابِ، وَهُوَ الْمُوَاجَهَةُ بِالْكَلامِ، وَخَطَبَ الْخَطِيبُ خُطْبَةً حَسَنَةً، وَخَطَبَ الْخَاطِبُ خُطْبَةً جَمِيلَةً»⁽²³⁾، وهذا من الناحية اللغوية.

اصطلاحاً: يرد لفظ الخطاب كثيراً مقترناً بوصف آخر، فهو لا يقتصر على جانب بحد ذاته، وإنما يتسع ليشمل مجالات كثيرة ومتنوعة وهو ما أشار إليه نور الدين السد بقوله: «والخطاب يتنوع بتنوع الطرق التي يتخذها المتكلمون أو الكُتَّاب، وذلك حسب مواقف اجتماعية وثقافية محدّدة، فنتج بذلك أنواع كثيرة من الخطابات⁽²⁴⁾؛ أي: إنّ الخطاب كلمة تطلق حسب المقام، لذلك قيل: لكل مقام مقال، وهذا ما يفسر ظهور الخطاب بتعريفات متنوعة في هذه الميادين العديدة، «بوصفه فعلاً، يجمع بين القول والعمل، فهذا من سماته الأصلية، وليس في هذا تشتت بقدر ما فيه من غنى وسعة في التصنيف»⁽²⁵⁾، وقد ورد لفظ الخطاب عند العرب قديماً، كما ورد عند الغربيين، ولكن مع درجات من التفاوت في معناه، ونجد الآمدي يعرف الخطاب تعريفاً واضحاً، بعد أن أدرك بأن تعريفه هو المنطلق لمعرفة الأحكام الشرعية، إذ يرى أنّه «اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه»⁽²⁶⁾، فيخرج من كل هذا، بأن لفظ الخطاب هو «مصدر الفعل خَاطَبَ يُخَاطِبُ خِطَابًا وَخِطَابَةً، وهو يدل على توجيه الكلام لمن يفهم، ذلك لأن الكلام، والخطاب، والتكلم، والتخاطب، والنطق، واحد في حقيقة اللّغة، وهو ما به يصير الحي مُتَكَلِّمًا»⁽²⁷⁾، فينتج عن ذلك الكثير من الخطابات.

وفي هذا السياق نشير إلى أنّ "الخطاب" في اللغات الطبيعية يختلف «من حيث حجمه، فيرد جملة، أو سلسلة من الجمل، أو نصّاً متكاملاً، كما يختلف من حيث نمطه فيكون خطاباً وصفيّاً، أو خطاباً حجاجيّاً، أو خطاباً فنيّاً، أو خطاباً علميّاً، إلى غير ذلك من الأنماط الخطابية المعروفة»⁽²⁷⁾؛ أي: إنّ الخطاب لا يمكن أن يكون موضوع تناول لساني صرف ما لم يرتبط بسلسلة من التقابلات التي تكسبه قيمة دلالية أكثر دقة، فنقول: خطاب أدبي، وخطاب سياسي، وخطاب ديني، وخطاب اجتماعي...، وما يلاحظ على هذا النوع من الخطابات ارتباطها في الغالب الأعم بمعنى الإقناع والحجة في الكلام، إضافة إلى ارتباطها بدلالة السياق، وعليه، «يضع الخطاب في اعتباره الواقع، والسياق وحالة المخاطب»⁽²⁸⁾، ومن الواضح أنّ دراسة الخطاب تسعى إلى تحليل

النصوص وفق منهجية علمية تهدف من جهة إلى تحليل المنجز الخطابي من حيث وظيفته، ومن جهة أخرى تبحث عن كيفية إنجازها، سواء أتم هذا الإنجاز عن طريق المنتج للخطاب أم عن طريق المستقبل له، ومن هنا نستطيع القول: إنّ الخطاب هو كل كلام موجه من متكلم إلى مستمع، بحيث يكون لدى المتكلم نية التأثير في المستمع على نحو ما.

ويبدو أنّ الخطاب هو كلّ ملفوظ يضم عددًا من الجمل، وهو ما يحتم عليه تحقيق الترابط بين هذه الجمل من حيث التلاحق في ما بينها، ومن حيث طريقة ترتيبها أيضًا، فالخطاب إذاً يرتبط بعملية التلفظ، وهو الأمر الذي يؤهله لأن يكون مركزًا لمركبات متلاحقة تصوغ الرسائل المختلفة وتضع لها العلامات الدالة، التي تسهم بدورها في عملية الاتصال والتواصل بين المرسل والمستقبل؛ لذلك يكون التواصل ضمن منظومة الخطاب متصلًا باللغة والمجتمع.

وبهنا أن نشير ها هنا إلى أنّ «الخطاب هو رسالة موجهة من المنشئ إلى المتلقي، تستخدم فيها الشيفرة اللغوية المشتركة بينهما، ويقضي ذلك أن يكون كلاهما على علم بمجموع الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تكوّن نظام اللغة، وهذا النظام يلبي متطلبات عملية الاتصال بين أراء الجماعة اللغوية»⁽³⁰⁾، المعبرة عن الحاجة المادية الملموسة، أو الحاجة المجردة المحسوسة، التي ترتقي فيها الأنساق اللغوية إلى تلك التعبيرات الواصفة التي تتماهى مع إفرازات التخيل والتخييل، وهي أنساق تفلتت من قيد المنطق والعقل معا، وأوغلت في المقابل في لامتناهي النفس. وضمن هذا التجاذب، كان من البديهي أن يتراوح الخطاب بين جنسين⁽³¹⁾ قوليين أولهما نثري وثانيهما شعري، وقد ركن كلّ منها إلى جملة الخصائص اللغوية والأساليب التعبيرية.

وعلى الرغم من ذلك، فلقد بينت محاولات التقريب بين هذين الخطابين أنّ هناك كثيرًا من مواطن الالتقاء التي تجمع بينهما على مستوى الخصائص الفنية سواء من حيث طبيعة اللغة المستعملة، أم على مستوى الجانب التحسيني من التعبير كالصور البلاغية، والمحسنات اللفظية، بل

وحتى في جانب الإيقاع أيضاً، كما أظهرت بالمقابل محاولات التفريق بين الخطابين وجود كثير من عناصر الاختلاف بينهما، وذلك بالاعتماد على أسس ينبع معظمها من داخل النص الأدبي، وهي تتعلق بالعناصر الفنية له كالوزن والقافية، والوضوح والغموض، والصدق والكذب وما إلى ذلك، أما في المفاضلة بين الخطابين فقد احتكموا إلى عناصر معظمها مستمد من خارج النص الأدبي، كالحديث عن مكانة الشاعر والناثر الاجتماعية، ووظيفة كلٍّ منهما في المجتمع⁽³²⁾، وهنا يشير نور الدين السد إلى أنّ «الخطاب الأدبي يأخذ استقراره بعد انجازه لغة، ويأخذ انسجامه وفق النظام الذي يضبط كيانه ويحقق أدبيته بتحقيق انزياحه، ولا يأتي له عدوله عن مألوف القول دون صنعة فنية، وهذا ما يحقق للخطاب الأدبي تأثيره ويمكنه من إبلاغ رسالته الدلالية، غير أن دلالة الخطاب الأدبي ليست دلالة عادية يمكن القبض عليها دون عناء، بل الذي يميز الخطاب هو التلميح وعدم التصريح»⁽³³⁾، بمعنى أن الخطاب لا يحقق أدبيته إلا إذا كان بلغة جمالية ترمي إلى الإيحاء وتشتمل على دلالات كثيرة.

3- 2 مفهوم الخطاب عند الغربيين: ورد مصطلح الخطاب في الأدبيات الحديثة

بتعريفات كثيرة ومتنوعة «وذلك بتأثير الدراسات التي أجراها عليه الباحثون حسب اتجاهي الدراسات اللغوية الشكلية والدراسات التواصلية، ولهذا، فهو يطلق، إجمالاً، على أحد المفهومين، يتفق في أحدهما مع ما ورد قديماً عند العرب، أما في المفهوم الآخر، فيتسم بجذته في الدرس اللغوي الحديث، وهذان المفهومان هما^(**):

الأول: أنه ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير، بإفهامه قصداً معيناً.

الآخر: الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة»⁽³⁴⁾.

ونفهم من هذا التصنيف أن اللغة هي النظام السابق على الخطاب، فهي موجودة بالقوة، فكما هو معلوم، فإنّ «اللغة هي مفتاح المعرفة، وأداة التواصل بين الناس على الأرض»⁽³⁵⁾، إلى

جانب كونهما «مادة الأدب الأساسية، وتلك المادة تتعرض للتغير والتحول لدواعي الاستعمال وتبدل الظروف الثقافية»⁽³⁶⁾، والاجتماعية وغيرها من عصر لآخر. إلا أننا نلاحظ، أن اللغة إذا كانت موجودة بالقوة، فإنّ الخطاب هو ما يجدها بالفعل، وهكذا «يفرق (قيوم) في وضع العلامة اللسانية في اللغة ومستوى الخطاب، إذ تكون العلامة اللسانية في اللغة، دالا ذا مدلول واحد، في حين تتعدد مدلولاتها في مستوى الخطاب، لأنه ميدان استعمالها»⁽³⁷⁾.

وعند هذا المأخذ «يعد خطابا كلُّ ملفوظ/ مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات»⁽³⁸⁾، معنى ذلك أن الخطاب أصبح شاملاً للجملة باعتماد التواصلية معياراً للخطابية، ويترب عن ذلك، إقصاء معيار الحجم من تحديد الخطاب حيث أصبح من الممكن أن يعدّ خطاباً نص كامل أو جملة تامة المعنى، وعليه يصبح الخطاب هو ذلك «الملفوظ منظوراً إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل والمقصود بذلك الفعل الحيويّ لإنتاج ملفوظ ما بواسطة متكلم معين في مقام معين. وهذا الفعل هو عملية التلفظ»⁽³⁹⁾؛ وبمعنى آخر يحدد (بنفسه) الخطاب بمعناه الأكثر اتساعاً بأنه كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً وتكون لدى الأول نية التأثير في الثاني بصورة ما»⁽⁴⁰⁾، كما أن «(جان لوي كاباناس) يربط الخطاب باللغة والكلام، فاللغة عموماً نظام من الرموز يستعملها الفرد للتعبير عن أغراضه، والكلام إنجاز لغوي فردي يتوجه به المتكلم إلى شخص آخر هو المخاطب.

ومن هنا يصبح الخطاب يعبر عن «رسالة لغوية ييشها المتكلم على المتلقي فيستقبلها ويفك رموزها»⁽⁴¹⁾، كما نلاحظ أنه بسبب تعدد مفاهيم الخطاب، وقع كثير من الباحثين في الخلط بين مفهومي الخطاب والنص والحق أن بينهما اختلاف؛ فالنص «هو مجمل القوالب الشكلية: النحوية والصرفية والصوتية، بغض النظر عما يكتنفه من ظروف أو ما يتضمنه من مقاصد»⁽⁴²⁾، في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي وكذلك في تأويله، مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه، ويقوم الخطاب على عدد من العناصر التي تسهم في عملية

التواصل وهي المرسل والمرسل إليه، بمعنى أن هناك مُخاطَبٌ ومُخاطَبٌ، بينهما خطاب يشتركان في إنتاجه، ومن هنا كان الخطاب أكثر شمولية من النص، فالخطاب يعمل على استيعاب النص بداخله وليس العكس، وفضلاً عن هذا فإنه لا يمكننا أن نحمل دور القارئ أو المخاطب في تكوين الخطاب، وفي هذا الصدد يقول محمد عابد الجابري: إنّ الخطاب ليس من نتاج المؤلف فحسب بل هو من نتاج المؤلف والقارئ في آن واحد، فالجانبان اللذان يكونان الخطاب هما ما يقوله الكاتب والقارئ معاً»⁽⁴³⁾، بالإضافة إلى مجموعة من العناصر المشتركة مثل: العلاقة بين طرفي الخطاب، والمعرفة المشتركة، والظروف الاجتماعية العامة.

ولذلك يقوم الخطاب -أي خطاب- على هذه العناصر الأساسية، وما يحيلها إلى عناصر سياقية، هو أنّ الخطاب ممارسة تجري تداوليًا في السياق، ممّا يحول دون ثبات سماتها، فالمرسل متجدّد وكذلك المرسل إليه، كما تعد المعرفة المشتركة بينهما، أكثر العناصر المهيمنة في تشكيل الخطاب، لما لآثارها من انعكاس على العناصر الأخرى، وبالتالي على تكوين الخطاب نفسه، كما أنّها متغيرة دومًا، وهذا هو وجه تسميتها بعناصر سياق الخطاب⁽⁴⁴⁾، وبهذا يلعب السياق دورًا كبيرًا في التفاعل الخطابي، مثل تحديد قصد المرسل ومرجع العلامات، وهو ما يدفعنا إلى ضرورة الحديث أولاً عن السياق من حيث: مفهومه، وأنواعه، وعناصره⁽⁴⁵⁾، ولنبدأ بـ:

4- مفهوم السياق: يعتبر مصطلح السياق من بين المصطلحات العلمية التي ما تزال

في طور البحث والدراسة بغية تحديد مفهومها عند عديد من الباحثين المعاصرين وفي هذا الصدد صرح طه عبد الرحمن «بأنّه بحث في كثير من المقالات من أجل العثور على بعض التعريفات ولم يجد تعريفًا محددًا للسياق»⁽⁴⁶⁾، فقد يتوهم «البعض أن هذا المصطلح أو ذاك واضح ومفهوم، فإذا ما حاولوا تحديد المعنى الذي ظنوا أنّهم يفهمونه، بدا الأمر عسيرًا غاية العسرة غامضًا أشد الغموض، ومن تلك المصطلحات اللغوية الشائعة الاستعمال العصبية على التحديد الدقيق بشكل متفق عليه بين الدارسين مصطلح الكلمة ومصطلح الجملة ومصطلح السياق الذي نحن بصدد تحديده»⁽⁴⁷⁾،

كما نلمس صعوبة تحديد مصطلح (السياق)، «فإذا كنا نشعر بالصعوبة الواضحة في تجلية المقصود بالسياق بوصفه مصطلحا، فإنّ مرجع هذه الصعوبة في نظري، هي محاولة العثور على تعريف للمصطلح، من ذلك النوع الجامع المانع كما يقول المناطقة، فسوف أولي وجهتي شطر ناحية أخرى لعلها أجدى في تجلية المقصود بالسياق، من محاولة البحث عن مثل هذا التعريف العصي، أعني بذلك صرف الجهد في التعرف على خصائص السياق وفهم عناصره وبيان دوره في تحديد المعنى كما يظهر ذلك عند أصحاب نظرية السياق» (48).

وهذه دعوة صريحة إلى تغيير وجهة البحث العصي والعقيم لتعريف شامل مانع للسياق، والتوجه إلى تبيين أهميته في دراسة المعنى وتحديد وظائفه وعناصره وغيرها من المباحث المتعلقة به، والجدير بالذكر هنا، أنّ مالىنوفسكي تفتن - أثناء دراسته للغة، ودورها في المجتمعات البدائية - إلى دور المنطوق الكامل في إطار المقام، واعتباره الجملة أداة اجتماعية، وقد قرّر بناءً على ذلك أنّنا ينبغي أن ندرس اللغة على أساس ارتباطها بالمجتمع الذي يستخدمها، وأنّ اللغة ليست وسيلة للتفاهم والتواصل فقط، أو صورة رمزية عاكسة للفكر، بل إنّ ذلك لا يعدو أن يكون وظيفة واحدة من وظائفها، فهي طريقة عمل ونشاط من السلوك الاجتماعي والتعاون المشترك (49)، وعليه، أقرّ مالىنوفسكي، أنّه لا يمكن للنصوص المترجمة أن تؤدي معنى لدى القارئ إلا إذا كانت مصحوبة بالملاحظات، وكانت وظيفة هذه الأخيرة تشخيص الموقف الخاص بالنص ببنية اللفظية وغير اللفظية، وهو ما سماه سياق الموقف (Contexte of Situation)، أو مجموع الظروف المحيطة بالحدث اللغوي الذي استخدمت أو نطقت فيه أو ما يصحب عملية إنتاج النص وتلقيه (50). وبنا عليه، يمكننا القول: «إنّ مصطلح السياق يطلق على مفهومين هما:

1- السياق اللغوي.

2- سياق التلقّظ، أو سياق الحال، أو سياق الموقف.

فالمفهوم الأول كان المفهوم الأكثر شيوعاً في البحث المعاصر، فهو الجواب البديهي عندما يتبادر إلى الذهن سؤال هام، وهو: ما السياق؟ إنّه حسب المعجم تلك الأجزاء من الخطاب التي تحف بالكلمة في المقطع وتساعد في الكشف عن معناها، وسوف ندعو هذا بالتعريف النموذجي»⁽⁵¹⁾. وأمّا السياق اللغوي، فهو «تجسيد لتلك التتابعات اللغوية في شكل الخطاب، من وحدات صوتيّة، وصرفيّة، ومعجميّة، وما بينهما من ترتيب وعلاقات تركيبية، ومع أنّ هذا التعريف صحيح في أحد جوانبه، فهو لا يمثل في عمومته إلاّ التعريف الضيق، حيث غدا مصطلح السياق من المصطلحات الشائعة والمؤثرة في الدرس اللغوي الحديث، منذ ابتدعه (مالينوفسكي). ليتّسع مفهوم السياق، خصوصاً في الدراسات التداوليّة... ولهذا، تجاوز الباحثون التعريف النموذجي إلى التعريف الأرحب للسياق»⁽⁵²⁾، فأصبحت تُعرّف مجموعة الظروف التي تحفّ حدوث فعل التلفظ بموقف الكلام... وتسمّى هذه الظروف، في بعض الأحيان، بالسياق (Contexte)»⁽⁵³⁾، ولقد وضع هذا المصطلح ليدل على مجموع الظروف والملابسات الاجتماعية والثقافية الخارجية المحيطة بالفعل اللغوي، لهذا يتحدد معنى الكلمة تبعاً لتعدد السياقات التي ترد فيها، من قبيل ذلك مثلاً أسماء الإشارة والضمائر والظروف الزمنية (الآن وغدا وقبل)، والمكانية (تحت، فوق، قدام، أمام). إذ لا يمكن للمتلقّي إدراك معانيها دون إلمامه بالسياق الذي قيلت فيه، وقد يلتبس عند هذا الحد، مصطلح السياق بمصطلح المقام، بحيث شاع المقام عند العرب قديماً عندما استعملوه في الدراسات البلاغيّة. في حين استعمل كثير من المحدثين، خصوصاً الغربيين مصطلح السياق. وإذا نظرنا إلى كل منهما، فإنّنا قد نجد فروقاً بين ما كان يقصده التداوليون في البحث اللغوي الحديث»⁽⁵⁴⁾.

وفي هذا الصدد يقدّم لنا الدكتور تمام حسان حقيقة مفادها أن مالينوفسكي " B. Malinowski (1884م - 1942م) وهو يصوغ مصطلحه الشهير (سياق الحال) "Context Situation" لم يكن يعلم أنّه مسبق إلى هذا المفهوم بأكثر من ألف سنة إذ يقول: «إنّ الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتب لهم تحت اصطلاح (المقام) ولكن كتبهم هذه لم

تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجدته اصطلاح مالىنوفسكي من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات وبراعة الدعاية الغربية»⁽⁵⁵⁾، فهذا إقرار صريح من الدكتور تمام حسان ينص على أن مصطلح (السياق) قد تناولته أقلام الكثيرين في دراسة المعنى، لأن كل دراسة لغوية لابد أن يكون موضوعها الأول والأخير هو البحث عن المعنى وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة، والتي تختلف باختلاف فروع المعرفة⁽⁵⁶⁾، ولذلك «ليس من السهل تحديد مجال السياق، فيجب على أيّ واحد أن يأخذ بعين الاعتبار العالم الاجتماعي والنفسي الذي يؤثر فيه مستعمل اللغة، في أيّ وقت كان»⁽⁵⁷⁾.

ولقد أشار تزفيتان تودوروف في تعريف للسياق إلى ضرورة التركيز على الاعتبارات الاجتماعية بشكل عام إذ يقول: «إننا نسمي مقام الخطاب مجموع الظروف التي نشأ التعبير في وسطها (الكتابي أو الشفهي)، ويجب أن نفهم من هذا المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ الظرف فيه مكانة، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه، وهوية هؤلاء، والفكرة التي يصطنعها كل واحد عن الآخر (بما في ذلك التمثيل الذي يمتلكه كل واحد عما يفكر به الآخر) والأحداث التي سبقت التعبير (لاسيما العلاقات التي كان يمتلكها المتخاطبون من قبل وتبادلات الكلام حيث يحشر التعبير المعني نفسه)»⁽⁵⁸⁾، والظاهر أنّ هذا التعريف يبرز ويشدد على أهمية السياق الذي تندرج تحته مجموع القنوات والقيم المشتركة بين طرفي العملية التواصلية (الباث، المتلقي/ الكاتب، القارئ) في فهم العبارات اللغوية، إذ يتعذر تأويلها والوصول إلى معانيها إذا اقتصرنا على الملفوظ من ناحية الدلالة المعجمية، وتجاهلنا كل شيء عن السياق غير اللغوي الذي قيلت أو أنجزت فيه، بيد أننا أمام هذا المنحى من التصور «لا يمكن أن نزعّم أن هذه الاعتبارات التي يقدمها تودوروف كافية لتسييج وتقنين مفهوم السياق، إذ أننا بمجرد ما تمتد يدنا إلى الذات الإنسانية تنغمر في ركام هائل من المعطيات والأحوال الذهنية والعاطفية والخيالية التي يصعب حصرها، إننا لا نلتفت إلى

هذه العناصر لمجرد التعريف بها، بل ننظر إليها باعتبارها عناصر مؤثرة في خطاباتنا وملونة إياها بمعان خاصة» (59).

وهكذا، يصبح لزوماً على طرفي العملية التواصلية الإدراك الواعي لعناصر السياق وملابساته الفيزيائية (المكان والزمان)، إلى جانب إدراك الاعتبارات الشعورية واللاشعورية العاطفية والذهنية التي تساعد في فهم الخطاب من أجل التمييز بين المعنى اللغوي (60)، والمعنى المقصود (61)، فقد لا تساهم كثيراً معرفة قواعد اللغة ومعاني مفرداتها في فهم التعبيرات اللغوية المستخدمة فعلياً بين طرفي العملية التواصلية، كون المتكلمين لا يتقيدون بحرفية اللغة في كثير من الأحيان، وما يجعل المخاطب في حاجة إلى الإحاطة بعناصر غير لغوية تساعد في إدراك وفهم خطاب المتكلم، كالسياق الثقافي والاجتماعي ومجموع الاستنتاجات التي يهتدي إليها منطقياً أو عرفياً عن طريق القرائن المقالية والحالية (62)؛ فلا بد للمتلقي (المستمع) الموجه إليه الخطاب، من أجل تحديد المعنى المراد من الخطاب أن يكون ملماً بنوعي القرائن: المقالية اللغوية الخاصة بنظام اللغة الصرفي والنحوي والمعجمي، وكذا إدراك الدور الفعال للقرائن الحالية غير اللفظية في فهم المعنى المقصود من الخطاب والتوصل إلى تحديده وتأويله بشكل صحيح.

وعليه، يتمثل السياق في ما يمكن أن نسميه بالجو الخارجي الذي يلف إنتاج الخطاب بكل مستوياته من ظروف وملابسات واهتمامات ومقاصد ومعتقدات وإيديولوجيات، وثقافة طرفي الخطاب (المخاطب والمخاطب) وما بينهما من علاقة، ومن البين أن أثر هذه العناصر ليس مقتصرًا على لحظة التلفظ بها فقط، بل يكمن دورها قبل وأثناء التلفظ، لهذا تلعب دوراً كبيراً وفعالاً في الوصول إلى مقصدية الخطاب (63) التي يسعى إليها مرسله.

- **المرسل:** هو الطرف المحوري في عملية إنتاج الخطاب، إذ «ترتكز دورة الكلام على الذات المرسلية التي تحدد نوعية التواصل، فالمرسل هو الأساس في عملية التواصل» (64)، لأنه هو الذي «ينتج الخطاب من خلال ما يتلفظ به، بغرض التعبير عن مقاصد وأهداف معينة، ولذلك لا يمكن

للغة الطبيعية أن تتجسد، وتمارس دورها الحقيقي، إلّا من خلال المرسل، فتصبح موجودا بالفعل بعد أن كان وجودها بالقوة فقط»⁽⁶⁵⁾؛ أي إن المرسل يوظف اللّغة فيكسبها فاعليّة في نسيج خطابه.

- **المرسل إليه:** هو الطرف الثاني في العملية التواصلية للخطاب، حيث يوجه إليه

المرسل خطابه عمداً لأنّ «الخطاب وتداوله مرهون إلى حد كبير بمعرفة حال المرسل إليه، أو بافتراض ذلك الحال، ويدل ذلك على أن المرسل إليه حاضر في ذهن المرسل عند إنتاج الخطاب، سواء أكان حضورياً أم استحضاراً ذهنياً، وهذا الشخص أو الاستحضار للمرسل إليه، هو ما يسهم في حركية الخطاب، بل يسهم في قدرة المرسل التنويعية»⁽⁶⁶⁾ أثناء عملية الاتصال والتواصل مع الآخر.

- **العناصر المشتركة بين المرسل والمرسل إليه:** لا تقتصر عملية التواصل في

الخطاب على طرفيه فقط، فهناك العلاقة بينهما والمعرفة المشتركة وغير ذلك من العناصر المؤثرة، وعليه، فإن العلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر السياقية التي يُراعيها المرسل دوماً عند إنتاج خطابه، فلا يتجاهلها أبداً لما لها من أهمية كبيرة تسهم في إنتاج عملية التواصل، وتحقيق هدف المرسل من عدمه، كما تعد المعرفة المشتركة من العناصر المؤثرة، فهي «الرصيد المشترك بين طرفي الخطاب، فالمعرفة المشتركة هي الأرضية التي يعتمد عليها طرفا الخطاب في انجاز التواصل، إذ ينطلق المرسل من عناصرها السياقية في إنتاج خطابه، كما يعول عليها المرسل إليه في تأويله، وذلك حتى يتمكن من الإفهام والفهم، أو الإقناع والاقناع»⁽⁶⁷⁾، وتجب الإشارة إلى أن المعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب تشمل معرفة عامة بالعالم من خلال معرفة كيف يتواصل الناس ببعضهم البعض، وكيف يفكرون، وكيف يستطيعون أن ينجزوا أفعالهم اللغوية داخل المجتمع مع إقامة الاعتبار لأطوره العامة الدينية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية.

وبالإضافة إلى ذلك، لا بد للمرسل والمرسل إليه من معرفة نظام اللّغة المستعملة في جميع مستوياتها، بما في ذلك دلالتها وعلاقتها بثقافتهم، ونشير هنا إلى أنّ اللّغة «تعنى بتشكيل

الكلمات والتراكيب المختلفة وتحديد معانيها واستخداماتها المناسبة، ويمكن للغة أن تكون منطوقة أو مكتوبة، كما يمكن لها أن تكون عن طريق الإشارات»⁽⁶⁸⁾ من ذلك مثلاً الإشارات التي يستخدمها الصم البكم.

وبما أننا خصصنا هذه الورقة البحثية للوقوف على مدى التقاطع المعرفي بين النص والخطاب عند الدارسين القدامى والمحدثين (المفهوم والحدود)، وعليه، يتضح لنا أن الإنسان يستخدم اللغة للتواصل مع غيره بطريقة أكثر فعالية، كما أن هذه اللغة تتخذ أشكالاً متعددة أهمها اللغة المنطوقة والمكتوبة، بالإضافة إلى لغة الإشارات والرموز المختلفة، وعليه، «يتوجب على طرفي الخطاب أن يكون لهما مقدار متقارب من المعرفة اللغوية ذاتها، فمعرفة اللغة عنصر مهم في السياق، إذ لا تكفي الإرادة عند المرسل لوحدها لتحقيق عملية التواصل لأنها لا تتحقق بغياب المعرفة باللغة»⁽⁶⁹⁾؛ بمعنى أن الكلمات التي يشكل منها المرسل خطابه يجب أن تكون معلومة لدى المرسل إليه معجمياً، لأن «الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب القابل لأن يوضع في سياقه، بالمعنى المحدد سلفاً، إذ كثيراً ما يكون المتلقي أمام خطاب بسيط للغاية (من حيث لغته)، ولكنه قد يتضمن قرائناً (ضامراً أو ظروفاً) تجعله غامضاً غير مفهوم بدون الإحاطة بسياقه»⁽⁷⁰⁾، بحيث يتملص الخطاب من سلطته النحوية وقوالب القول النمطية، ليتركز إلى قسرية الاستعمال وألعايب المنطق اللغوي التي تمتاح من أساليب التضمين والاستلزام الحوارية والحجج الجاهزة، لترتفع بذلك أنساق القول والخطاب إلى الطبيعة النفعية والتداولية للغة.

5- التقاطع بين الخطاب والنص: تجميعاً لما تم تقديمه حول مفهومي "النص"

و"الخطاب" لدى الدارسين اللغويين الغربيين والعرب، نلاحظ أنّ التعدد في الآراء قد طبع دراساتهم نظراً لتعدد المرجعيات لديهم، وتبعاً لذلك أفرز هذا التعدد خلطاً بين مفهومي "الخطاب" و"النص"؛ وهكذا تعد قضية تحديد المصطلحات اليوم وضبطها، من أهم القضايا التي تصدر قائمة الأبحاث

والدراسات العلمية والأدبية، نظرًا لتأثيرها الكبير في تحريك عجلة التصورات الإنسانية لشتى المواضيع، ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير أيضا إلى أنه «يتعذر على الباحث العربي ضبط المفاهيم في ظل هذه التداخلات الاصطلاحية "للخطاب"، و"النص" خاصة مع انتماء المصطلحات إلى حقل معرفي واحد، فسيمة الخلط والغموض والارتباك التي تسم جميع الممارسات التي تتصل بأمر المصطلح، تفاعلت فأصبحت إشكالية أساسية من إشكالية الثقافة العربية الحديثة، والأمر في الأصل يرتبط بسببين أفصيا إلى كثير من المظاهر المتصلة بها؛ كإضفاء دلالات جديدة على المصطلح، الذي أنتجته الثقافة العربية في الماضي، أو نقل مصطلح ذي دلالة جديدة على المصطلح الذي أنتجته الثقافة العربية في الماضي، أو نقل مصطلح ذي دلالة محددة ضمن ثقافة ما إلى ثقافة أخرى» (71).

وعليه ألفينا بعض الدراسات تشير إلى وجود تباين واختلاف بين "النص" و"الخطاب"، «والحق أنّ بينهما اختلاف؛ فالنصّ في هذه الدراسات هو مجمل القوالب الشكلية: النحوية والصرفية والصوتية، بغض النظر عما يكتسبه من ظروف أو يتضمنه من مقاصد» (72)، وهذا ما دعا الباحثين لتطوير الدراسات اللغوية بدراسة استعمالها في التواصل ضمن إطاره الاجتماعي، مما استدعى دراسة السياق الذي يجري فيه التلفظ بالخطاب بدء من تحديده، ومعرفة عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي، وكذلك في تأويله، مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه، وهنا نشير كذلك إلى وجود فرق في العلامات المستعملة، فقد ينتج الخطاب بعلامات غير لغوية كما هو الحال في التمثيل الصامت أو الرسم الكاريكاتوري أو الخطاب الإعلاني التجاري الذي قد يقتصر على استعمال علامات غير لغوية (73).

6- خاتمة: وفي ختام هذا البحث تتبدى لنا جملة من الفوارق الجوهرية بين مفهومي

"النص" و"الخطاب"، نجملها في بعض النتائج التي توصلنا إليها، وهي كالآتي:

- يعد مصطلحا "النص" و"الخطاب" من بين المصطلحات المتداولة بكثرة في الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة، حيث شهدا تداولاً في عديد التخصصات، وتبعاً لذلك تعددت مفاهيمها من باحث لآخر على الصعيد العربي والغربي.

- ولهذا يتميز "النص" عن الخطاب بتشكله المادي الذي يتجسد عن طريق ممارسة فعل الكتابة عبر وسائط ورقية أو إلكترونية (نص إلكتروني) التي تمنحه صفة الديمومة المتوقفة على عملية القراءة في تلقيه على خلاف "الخطاب" المرتبط بلحظة إنتاجه والموجه إلى متلق، وبمعنى آخر يحدد (بنفست) الخطاب بمعناه الأكثر اتساعاً بأنه كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما» (74).

- وهكذا، فإنّ "الخطاب" تحدّثه اللغة الشفوية، بينما "النص" فتنسجها الكتابة؛ أي أنّ اللغة الشفوية تنتج خطابات بينما الكتابة تنتج نصوصاً، وكل منها محدد بمرجعية القنوات التي يستعملها؛ "الخطاب" محدود بالقناة النطقية أي المشافهة بين المتكلم والمخاطب، وعليه، فديمومته مرتبطة بما لا تتجاوزهما، أمّا "النص" فإنه يستعمل نظاماً خطياً، فديمومته رئيسية في الزمان والمكان (75).

- وبهذا، فالخطاب لا يتجاوز سامعه إلى غيره؛ أي أنه مرتبط بلحظة إحداثه، فحدّه أنّه «ممارسة تجري تداولياً في السياق» (76)، بينما النص له ديمومة الكتابة، لأنّ القراءة تجعله يتجاوز حدود زمان ومكان.

- وتبعاً لذلك، يتوجه مرسل النص إلى متلق غائب يتلقاه لاحقاً عن طريق ممارسة فعل قراءة، في حين يلزم وجود طرفي الخطاب في الزمان والمكان عينه؛ أي أنّ الخطاب نشاط اتصالي وتواصلية يتأسس قبل كل شيء على اللغة المنطوقة بينما النص مدونة مكتوبة.

7- قائمة مراجع الدراسة:

- 1- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د/ت، د/ط، ص 40، 41.
- 2- الجابري محمد عابد، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993م، ط3، ص111.
- 3- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، تح: عبد السلام هارون، مج07، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1992م، ط1، ص97.
- 4- البستاني بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1983م، د/ط، ص896.
- 5- مجمع اللغة العربية، د/ت، المعجم الوسيط، ص934.
- 6- علي بن محمد علي الجرجاني، التعريفات، دار الكتاب اللبناني بيروت، ودار الكتاب المصري، 1411هـ/1991م، ط1، ص250، 251.
- 7- يراجع بطرس البستاني، محيط المحيط، المصدر نفسه، ص896.
- 8- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 1985م، ص80.
- 9- إدريس بلمليح، الرؤية اللسانية عند الجاحظ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 1984م، ص131.
- 10- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر لوانجمان، القاهرة، ط01، 1997م، ص112.
- 11- أوزفالدو ديكر و جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان (طبعة منقحة)، تر: منذر العياشي، المركز الثقافي العربي، ط02، 2003م، ص533.

- 12- يراجع سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، ط02، 2001م، المغرب، ص21، 22.
- 13- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، المرجع نفسه، ص113.
- 14- فولفجانج وفيهتجر، مدخل إلى علم لغة النص، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2004م، القاهرة، ص07.
- 15- المرجع نفسه، ص18.
- 16- المرجع نفسه، ص07.
- 17- أحمد حساني، السياق والتأويل من الإشكالية الفيلولوجية إلى الإشكالية اللسانية، الموقف الأدبي، ع392، ديسمبر 2003م، ص62.
- 18- محمد مفتاح وأحمد بوحسن، مفهوم النص في مجالين ثقافيين، انتقال النظريات والمفاهيم منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 76، سنة 1999، ص11.
- 19- محمد الصغير بناني، مفهوم النص عن المنظرين القدماء، مجلة اللغة والأدب ع12، شعبان 1418/أكتوبر 1997م، ص38، 39.
- 20- ناصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط06، 2005م، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ص10.
- *- يراجع مقدم فاطمة، خطاب المقامة لدى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي -مقاربة تداولية-، إشراف: ناصر اسطمبول، مذكرة دكتوراه علوم، تخصص: لسانيات وتحليل الخطاب، جامعة أحمد بن بلة 01، وهران/ الجزائر، 2018-2019م، ص17، 26.
- 21- يراجع نعمان بوقرة، مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري، نفس المرجع، ص21.

- 22- ابن منظور، لسان العرب، ج01، دار صادر، لبنان، د/ ط، د/ ت، ص36.
- 23- أبو القاسم محمود الزمخشري، أساس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، لبنان، د/ ط، د/ ت، ص114.
- 24- يراجع مقدم فاطمة، خطاب المقامة لدى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي -مقاربة تداولية-، المرجع نفسه، ص18.
- 25- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط01، 2004م، ص34.
- 26- علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تح: سيد الجميلي، ج01، دار الكتاب العربي، بيروت، ط02، 1986م، ص136.
- 27- يراجع عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، المرجع نفسه، ص36.
- 28- أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2010م، ص21.
- 29- فادي إسماعيل، الخطاب العربي المعاصر، قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة، ط03، 1992م، ص13.
- 30- عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د/ ط، 2006م، ص80.
- 31- لقد شاع استعمال مصطلح "الجنس" في النقد العربي القديم كمرادف للفن أو النوع الأدبي، يراجع مصطفى البشير القط، مفهوم النشر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د/ ط، 2010م، ص76.

- 32- يراجع مصطفى البشير القط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، المرجع نفسه، ص 137، 138.
- 33- عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، المرجع نفسه، ص 80.
- **- يراجع مقدم فاطمة، خطاب المقامة لدى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، المرجع نفسه، ص 12، 13، 14.
- 34- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، المرجع السابق، ص 36، 37.
- 35- كمال الرياحي، كتاب عمان 01، حوارات ثقافية في الرواية والنقد والقصة والفلسفة حوار مع الدكتور عبد الملك مرتاض، ع 112، الرأي مطابع المؤسسة الصحافية الأردنية، تونس، 2003م، ص 55.
- 36- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 01، 2003م، ص 92.
- 37- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، المرجع السابق، ص 37.
- 38- أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، دار الأمان، المغرب، ط 01، 1431هـ - 1997م، ص 24.
- 39- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط 03، 1997م، ص 19.
- 40- أحمد الصغير المراغي، الخطاب الشعري في السبعينيات، دراسة فنية ودلالية، دار العلم والإيمان، مصر، ط 01، 2008م، ص 41.

- 41- محمد كواكبي، خصائص الخطاب الشعري في ديوان أبي فراس الحمداني، دراسة صوتية وتركيبية، دار هومة، الجزائر، د/ط، 2003م، ص21.
- 42- يرتكز دور المقاصد في الخطاب بوجه عام، على بلورة وتحسيد المعنى كما هو عند المرسل، إذ يستلزم منه مراعاة كَيْفِيَّة التعبير عن قصده، وانتخاب الإستراتيجية التي تتكفل بنقله مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى، ولما كانت غاية المرسل هي إفهام المرسل إليه، فإن المقاصد هي لبّ العملية التواصلية على أنه لا وجود لأي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل، ودون وجود إبداع أو على الأقل دون وجود توليف للعلامات، ولأنها كذلك فإنّ (سيرل) يرى بأن المقاصد ذات تكوين بيولوجي، ولها أطر معينة في ذهن المرسل، يراجع عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المرجع السابق، ص180، 181، 182، 183.
- 43- أحمد الصغير المراغي، الخطاب الشعري في السبعينات، المرجع السابق، ص39.
- 44- يراجع عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، المرجع السابق، ص40.
- 45- المرجع نفسه، ص40.
- 46- إبراهيم أصبان السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة، مجلة الإحياء: عدد 25 يوليو 2007م، المغرب، ص54، نقلا عن طه عبد الرحمن ندوة البحث اللساني (منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 06، ص302.
- 47- إبراهيم أصبان السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة، المرجع نفسه، ص54، نقلا عن محمد يوسف حبلس، البحث الدلالي عند الأصوليين، عالم الكتب، القاهرة، ط01، 1411هـ، ص28.

- 48- يراجع إبراهيم أصبان السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة، المرجع نفسه، ص54، نقلا عن محمد يوسف حبص، البحث الدلالي عند الأصوليين، عالم الكتب، القاهرة، ط01، 1411هـ، ص29.
- 49- يراجع إبراهيم أصبان، السياق بين علماء والشريعة والمدارس اللغوية الحديثة، مجلة الإحياء، عدد 25، ص60.
- 50- يراجع نفس المرجع، ص60.
- 51- يراجع عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المرجع السابق، ص40.
- 52- أي سياق التلقظ، أو سياق الحال، أو سياق الموقف.
- 53- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المرجع نفسه، ص41، 40.
- 54- يراجع نفس المرجع، ص41.
- 55- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط02، 1979م، ص337.
- 56- يراجع تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، المغرب، د/ط، 1979م، ص295.
- 57- يراجع عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المرجع نفسه، ص41، 42.
- 58- أوزفالدو ديكر و جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، ص677.
- 59- محمد الولي، السياق... إشكالية قديمة في أضواء جديدة، مجلة الأحياء، ع 25، ص64.
- 60 - المعنى اللغوي: هو المعنى المفهوم عن طريق اللغة وحدها.

- 61- المعنى المقصود: هو المعنى المفهوم من القول المستخدم في ظل عناصر السياق. لذلك ينبغي للمخاطب مراعاة أمور أخرى من خارج اللغة ولكنها مرتبطة بها، كمراعاة المخبر والمخبر عنه والمخبر به، بالإضافة إلى الإخبار نفسه، مع النظر إلى الحال والمساق ونوع الأسلوب فلا إدراك كنه مقاصد المتكلمين، لا بد من الإلمام بجملة الأعراف وضوابط التخاطب السائدة عند متحدثي اللغة العربية، يراجع محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليا، المرجع السابق، ص121.
- 62- يراجع محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليا، في ضوء مفهوم الدلالة المركزية، دراسة حول المعنى وضلال المعنى، منشورات جامعة الفاتح الجماهيرية العظمى، ليبيا، 1993م، ص120.
- 63- يراجع عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المرجع السابق، ص45.
- 64- عمر أوكان، اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، المغرب، د/ ط، 2001م، ص36. ويراجع مقدم فاطمة، خطاب المقامة لدى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، المرجع نفسه، ص33.
- 65- يراجع عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص45.
- 66- المرجع نفسه، ص48.
- 67- المرجع نفسه، ص45.
- 68- موسى عمايرة وآخرون، مقدمة في اللغويات المعاصرة، دار وائل للنشر، الأردن، ط 01، 2000م، ص244.
- 69- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المرجع السابق، ص69.50
- 70- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط02، 2006م، ص56.
- 71- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ط1، 1999، ص96.

72- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، المرجع السابق، ص39.

73- مارسيلو داسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصر، تر: حميد لحداني وآخرون، إفريقيا الشرق، الدر البيضاء، د/ط، 2000م، ص06.

74- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، المرجع السابق، ص39.

75- بشير إبرير، من لسانيات الجملة إلى علم النص، مجلة التواصل، عدد 14، الجزائر، جوان 2005م، ص93.

76- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، المرجع نفسه، ص40.